University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الرابع عشر - فبراير 2017

الصراع الأندلسي الفاطمي في بلاد المغرب

* د. حمزة السر محمد الحسن، ** أ. صلاح الدين يوسف بورويق.
(* عضو هيئة التدريس - جامعة بحري - السودان)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الرابع عشر - فبراير 2017

الصراع الأندلسي الفاطمي في بلاد المغرب

مستخلص:

تتناول هذه الورقة الصراع بين الخلافة الأموية بالأندلس والدولة الفاطمية على شمال أفريقيا، ويغطي ذلك الصراع فترة الخليفة عبد الرحمن الناصر والخليفة الحكم المستنصر والحاجب محمد بن أبي عامر. وتنبع أهمية الورقة من كون ذلك الصراع هو صراع في حقيقته بين مذهبين متناقضين هما المذهب السني والمذهب الشيعي ومحاولة كل مذهب التمدد على حساب الآخر. وتهدف الورقة التي استخدمت المنهجين التاريخي والتحليلي إلى إبراز أهم سمات الصراع الأندلسي الفاطمي في بلاد المغرب، والتعرف على أهم الوسائل والأساليب التي اتبعها كل طرف لإضعاف الطرف الآخر، وبيان الجهود التي بذلها كل من الخليفة الناصر والخليفة المستنصر والحاجب ابن أبي عامر للتصدي للنفوذ الفاطمي. وقد خلصت الورقة إلى أن رغبة أمويي الأندلس في مقاومة النفوذ الشيعي الفاطمي في المغرب كان هو الدافع الأساسي لإعلانهم قيام الخلافة الأموية بالأندلس، وأنه لما شعر الفاطميون باستحالة غزو الأندلس وأن بقاءهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر أمام غارات الأمويين ودسائسهم، قرروا إخلاء ذلك الميدان والتحول إلى مصر، وأوصت الورقة بدعوة الدارسين للبحث في أسباب فشل نشر الفاطميين للمذهب الشيعي في شمال أفريقيا ومصر رغم نفوذهم القوي فيهما.

Abstract.

This paper deals with the struggle between the Umayyad Caliphate of Andalusia and the Fatimids. This struggle covered the reigns of Abd-al-Rahman Al-Nasir, Al-Mustansir and the period of Mohamed Ibn Abi Aamir. The importance of this paper comes from the fact that this struggle in fact was a struggle between the Sunnite and the Shite sects and the attempt of each sect to extend its influence at the expense of the other. The paper, which uses the historical and descriptive methods, aims at showing the most important features of the Andalusian Fatimid struggle on North Africa. It also aims at explaining the different means used by each side to weaken the other. Moreover, it explains the efforts of Abd-al-Rahman Al-Nasir, Al-Mustansir and Mohamed Ibn Abi Aamir against the Fatimid influence. The paper concludes that the desire of the Andalusian Umayyads to fight the Fatimid influence was the main reason for their declaration of the rise of the Caliphate. Moreover, when the Fatimids felt that it was impossible to invade Andalusia and that their existence in North Africa was surrounded by danger they decided to evacuate the field of North Africa and move eastward toward Egypt. The paper recommends that researchers are invited to make further studies on: Why did the Fatimids fail to spread their call in North Africa an Egypt despite their strong influence there.

مقدمة:

إن العداوة بين بني أمية وبني هاشم تضرب بجذورها عبر السنين، وترجع إلى ما قبل الإسلام، ثم زادتها الثارات والإحن. وتطور العداء من صراع تقليدي إلى خلاف مذهبي بعد مقتل الحسين بن على بن أبي طالب سنة 40هـ. وأذكى الصراع وجدده قيام خلافة فاطمية شيعية بأفريقيا بجوار الإمارة الأموية في الأندلس، الأمر الذي أعطى أبعاداً جديدة للصراع. ولقد كان الصراع الأموي الفاطمي هو السمة البارزة في تاريخ المغرب والأندلس خلال عهد الخلافة الأموية بالأندلس. وقد كان لهذا الصراع بصماته الواضحة على السياسة الداخلية والخارجية في الدولتين الأموية والفاطمية.

وقد اتسمت العلاقة بين الأندلس والفاطميين في المغرب بالعداء الشديد. وحاول كل منهما التوسع على حساب الأخر بشتى الوسائل والطرق، واعتمد الطرفان أساليب مختلفة للإخلال بأمن بعض وإثارة المتاعب. وقد تراوحت تلك الأساليب بين الحرب الباردة وإرسال الجواسيس لاقتناص المعلومات، إلى استخدام القوة وتناطح الأساطيل. وإذ كان لكل طرف من الأطراف وسائله وأهدافه فهو في نفس الوقت يمتلك الإجراءات الوقائية لتحركات الطرف المضاد، فقد حاول الفاطميون مراراً وتكراراً عن طريق دعاتهم نشر مذهبهم الشيعي الإسماعيلي، لكنهم فشلوا، ويرجع السبب في فشل الدعاية الفاطمية في اجتذاب الأنصار إلى قوة تأصل المذهب السني في الأندلس وفطنة بنى أمية.

وكان من أشهر الدعاة الفاطميين لنشر المذهب الشيعي في الأندلس: أبو اليسر الرياضي، وأبو جعفر محمد بن هارون البغدادي الذي دخل الأندلس بقصد التجسس، حيث زود الفاطميين بمعلومات على قدر كبير من الأهمية، كما استخدم الفاطميون الجغرافي الشهير ابن حوقل الذي دخل الأندلس لنشر المذهب الاسماعيلي، ومستطلعاً لأحولها السياسية والاقتصادية، فرصد دخلها ومواردها، ووصف طرقها ومسالكها بصورة أراد بها إقناع الفاطميين بضرورة فتحها لكسب خيراتها ولضعف أهلها في الدفاع عنها، وهو ما يظهر في بعض ما كتبه في مؤلفه (صورة الأرض). والجدير بالذكر أن الدعاة الفاطميين استتروا وراء أعمال أخفوا بها أهدافهم الحقيقية كالتجارة والدراسة والرحلات.

على أن الحكومة الأموية في الأندلس لم تقف مكتوفة الأيدي أمام أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس، إذ كان لها هي الأخرى عيون ووسطاء منبثين في أنحاء المغرب، وكان هؤلاء الجواسيس يوافون حكومتهم بما يهمها من أخبار هذه البلاد. وقد ساعد هؤلاء في مهمتهم وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربي في طنجة ووهران وتنس وبونة وبجاية ومرسي الدجاج. وكانت هذه الجاليات قوية التمسك بالعقيدة السنية، شديدة الكراهية للمذهب الشيعي.

أهمية الورقة:

تنبع أهمية الورقة من كون الصراع بين الخلافة الأموية بالأندلس والدولة الفاطمية على شمال أفريقيا هو صراع بين مذهبين متناقضين هما المذهب السني والشيعي. ومحاولة كل مذهب التمدد على حساب الآخر.

أهداف الورقة:

1- إبراز أهم سمات الصراع الأندلسي الفاطمي في بلاد المغرب.
2- التعرف على أهم الوسائل والأساليب التي اتبعها كل طرف لإضعاف الطرف الآخر.
3- بيان الجهود التي بذلها كل من الخليفة الناصر والخليفة المستنصر والحاجب ابن أبي عامر للتصدي للنفوذ الفاطمي.
4- إيضاح الآثار المترتبة على هذا الصراع.

منهجية البحث:

استخدم الباحث في هذا البحث المنهج التاريخي، بالإضافة إلى المنهج الوصفي إذ أنهما مناسبان لمثل هذه الدراسة.

أولاً: جهود عبد الرحمن الناصر في محاربة الفاطميين:

يمكن تلخيص الجهود التي قام بها عبد الرحمن الناصر لمحاربة النفوذ الفاطمي في النقاط التالية:

إعلان نفسه خليفة:

أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة 316ه/929م. وكان الدافع الأساسي لهذه الخلافة السنية الجديدة هو مقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية في المغرب، فكان ذلك من الأسباب التي أثارت الخلافة الفاطمية، حيث اعتبر الفاطميون ذلك الإعلان تعدياً عليهم، ولذلك فرضوا قتاله، واستحلوا دمه، مثلما هو واضح من الخطاب الذي بعثه المعز لدين الله الفاطمي إلى الأندلس، والذي يقول فيه: ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك من دوننا وادعاه (العبادي، بدون تاريخ :397).

تقوية الأسطول البحري:

كان ظهور القوة الفاطمية من دوافع اهتمامه بالسلاح البحري الذي لم يكن حتى ذلك الحين متكافئاً مع احتياجات دولة لها تلك الشواطئ الممتدة على مسافات طويلة. ولعل أول اهتمام جدي اتخذته الأندلس الأموية في هذا المجال يعود إلى ما بعد الغزوة الشهيرة التي قام بها النورمان في عهد عبد الرحمن الثاني، فقد أدركت تلك الدولة حينذاك نقطة الضعف في سلاحها، وحاولت تقويم هذا الاختلال بحدود ما تفسح لها الظروف، غير أن الحاجة الملحة لإنشاء قوة بحرية متكاملة لم تظهر إلا في أيام عبد الرحمن الناصر.

لقد اهتم عبد الرحمن الناصر بإعداد أسطول بحري قوي لمواجهة الأسطول الفاطمي وتحصين سواحل الأندلس وبناء الاستحكامات الدفاعية في المناطق الجنوبية المواجهة لبلاد المغرب، وأشرف بنفسه على ذلك، مثلما فعل في جزيرة طريف والجزيرة الخضراء. ولقد شيد داراً لصناعة السفن في الجزيرة الخضراء لقربها من الساحل المغربي. ونظراً لأهمية المدينة وخشية الأمويين عليها من دعاة الفاطميين وجواسيسهم، كان الناصر يختار بنفسه حاكمها من أهل بيته حتى يضمن ولاءه من جهة وعداوته للفاطميين من جهة أخرى. وقد تمكن الأسطول الأندلسي بالفعل من أن يفرض حراسته المشددة على المضيق الذي يفصل الأندلس عن بلاد المغرب، ويمنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائرين من أمثال ابن حفصون، وبذلك أحكم عبد الرحمن الناصر الخطط للدفاع عن بلاده ضد أي غزو فاطمي محتمل، ثم بدأ في تطوير سياسته الدفاعية بتركيز جهوده الحربية ضدهم بالاستيلاء على بعض ثغور الساحل المغربي المواجهة لساحل الأندلس، فاستولى على مدينة مليلة (ياقوت الحموي، 1906: 197). وفي سنة 319هـ تطلع إلى مدينة سبتة المواجهة لمدينة الجزيرة الخضراء (عنان، 1988: 426) فجرد إليها أسطولاً مكوناً من مائة وعشرين سفينة حربية وناقلة وسبعة آلاف مقاتل، منهم خمسة آلاف من البحارة، وانضم إليهم عدد من وجوه مدينتي المرية وبجاية تطوعاً في مراكبهم. وقد أبحر هذا الأسطول من الجزيرة الخضراء بقيادة أميري البحر: أحمد بن محمد بن الياس وسعيد بن يونس، وقد تمكنا من الاستيلاء على مدينة سبتة من أيدي ولاتها بني عصام حلفاء الفاطميين، واستعملا عليها فرج بن عقير والياً (ابن عذاري،2009: ص 282). كما عمد الناصر إلى احتلال ثغر طنجة المجاورة لها غرباً، ثم وجه أسطوله في سنة 320ه لاحتلال جزيرة أرشقول الواقعة أمام مصب نهر تافنا بالمغرب الأوسط، وحاصر فيها الحسن بن عيسى بن أبي العيش أحد أمراء الأدارسة، ولم ينقذه من الهلاك إلا

حلول الشتاء، حيث قفل الأسطول الأندلسي راجعاً إلى المرية (ابن حيان، 1973: 220). بعد أن قدر للخليفة عبد الرحمن الناصر أن يبسط نفوذه هناك بمساعدة خصوم الدعوة الفاطمية.

وعلى الرغم من فشل عبد الرحمن الناصر من احتلال جزيرة أرشقول إلا أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى في المغرب الأقصى مثل سبتة وطنجة ومليلة أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق، وأن يتدخل في سياسة المغرب لإثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمي.

غير أن الصراع البحري بين الخلافتين المتجاورتين توقف أخيراً بسبب انصراف الفاطميين باهتمامهم إلى غير هذه المنطقة، لتصبح كل همومهم بالتالي شرقية، وقد خرج عبد الرحمن الناصر من هذا الصراع بمدينة سبتة التي ظلت منفردة بولائها للأندلس.

وهكذا كان الضغط الفاطمي على دولة عبد الرحمن الناصر سبباً في انتعاش أسطولها البحري الذي أخذ في النمو إلى درجة أن الأندلس صنفت بين الدول البحرية الشهيرة في ذلك الوقت إلى جانب الفاطميين والبيزنطيين (بيضون،1986: 291).

اصطناع ملوك ورؤساء القبائل في المغرب:

عمل الناصر على اصطناع رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى، مثل دولة الأدارسة التي قامت قبل الحكم الفاطمي في شمال أفريقيا، وهي دولة علوية حسنية أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وبنى عاصمتها مدينة فاس، التي أتمها ابنه إدريس الثاني. وهذه الدولة العلوية ولو أنها لا تدين بالمذهب الإسماعيلي الفاطمي، إلا أنها مهدت السبيل من غير شك إلى داعية الفواطم أبي عبد الله الشيعي، وهيأت الأذهان لقبول دعوته لآل البيت، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الدولة تعرضت لعداء الفاطميين وهجومهم، فكان نفوذها بعد الغزو الفاطمي قد انحصر في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصرة وأصيلا وقلعة النسر أو حجز النسر بين قبائل غمارة.

كذلك عمل الناصر على اصطناع إمارة نكور، وهي إمارة عربية سنية مالكية بمنطقة الريف، وكان يحكمها في ذلك الوقت الأمير صالح بن سعيد، وتنسب هذه الأسرة إلى قائد عربي يمنى من قواد عقبة بن نافع اسمه صالح بن منصور الحميري، كان قد استقر في هذه المنطقة ودفن بها، وصار قبره يعرف بقبر العبد الصالح، ثم خلفه أبناؤه من بعده في حكم هذه المنطقة. ولقد لعبت نكور دوراً كبيراً في نشر الإسلام واللغة العربية بين أهل الريف من بربر غمارة وصنهاجة، كما أنها في الوقت نفسه قاومت تيار الخوارج والشيعة، ولقيت من وراء ذلك عناء كبيراً خفف من حدته تأييد الأمويين في الأندلس (العبادي، بدون تاريخ: 400).

ولم يقتصر عبد الرحمن الناصر على محالفة هذه الدويلات المغربية الشمالية، بل تخطاها إلى ما وراءها من قبائل البربر ولاسيما قبيلة زناتة التي عمل على تحريضها ودفعها إلى قتال صنهاجة حليفة الفاطميين.

تأييد ثورة أبي يزيد الخارجي:

عمل عبد الرحمن الناصر على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية للدولة الفاطمية كثورة الخوارج الخطيرة التي قامت في تونس والجزائر بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتى الخارجي ضد الدولة الفاطمية في عهد الخليفة القائم الفاطمي الذي جلب على نفسه بغض الرعية حيث فرض المذهب الفاطمي عليها بالقوة (السيوطي، 1964: 391). فقتل كل من أحس منه ربح المعارضة، الأمر الذي ترتب عنه فرار الكثير من علماء السنة من أرضه، حرصاً منهم على مذهبهم (الزناتي، 2008: ص139). ثم زاد الخليفة القائم من الضرائب المفروضة على تجارة القوافل في بلاده (ابن حوقل، 1979: 67). وعليه ثارت نفوس الرعايا لأنهم حرموا من الحرية المذهبية، كما

حرموا من جزء كبير من أموالهم دون وجه حق. فتفجرت ثورة عنيفة قادتها قبيلة زناتة التي كانت تتطلع دائماً لإثبات مكانتها (الزناتي، 2008: 139).

ولم يتردد عبد الرحمن الناصر في تأييد هذه الثورة وامدادها بالمساعدات المالية والعسكرية. وفى مقابل ذلك اعترف أبو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية، ودعا للخليفة عبد الرحمن الناصر في البلاد التي خضعت له. وفي سنة 333ه/944م أرسل إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر وفداً يخبره بتغلبه على القيروان ورقادة وما جاورهما وهزيمته لجند القائم الشيعي، وبظهر له خضوعه واعترافه بولايته. وفى السنة التالية أرسل إليه سفارة ثانية من علماء القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبي العرب التميمي. وفى السنة التالية أرسل سفارة ثالثة برئاسة ولده أيوب، فأكرمه عبد الرحمن الناصر، وأنزله في قصر الرصافة، وأمده بمبلغ كبير من المال لتعزيز مركز والده (ابن عذارى،2009: 322،319). ولم يقتصر دعم عبد الرحمن الناصر لأبى يزيد بالمال فقط بل أرسل أسطوله البحري بقيادة ابن رماحس لمساعدته (الزناتي، 2008: 142).

ومن جهة أخرى فقد خدمت هذه الثورة النفوذ الأموي في المغربين الأوسط والأقصى بفعل تأثيرها في تقلص سلطان الفاطميين وانحساره حول المهدية حتى كادت دولتهم أن يذهب ريحها. والمعروف أن هذه الثورة والتي استمرت عشرين عاماً انتهت أخيراً بالفشل وقتل صاحبها سنة 336هـ/948م، والفضل في ذلك يرجع إلى انضمام قبيلة صنهاجة إلى جانب الدولة الفاطمية لأن أبا يزيد الخارجي كان زناتياً تؤيده قبيلة زناته المنافسة لها (الزناتي، 2008: 142).

انحسرت الدعوة للأمويين في المغربين الأوسط والأقصى في أواخر عهد عبد الرحمن الناصر، وفقد الناصر فجأة ما بذله من جهد لاستقبال قبائل زناته وضمان ولاء الادارسة.

ثانياً صراع الحكم المستنصر مع الفاطميين في المغرب:

سار الخليفة المستنصر على سياسة والده الناصر العدائية نحو الفاطميين، فيروى ابن عذارى أنه في سنة 353هـ تحرك الخليفة بنفسه من قرطبة إلى ثغر المرية لمعاينة حصون هذه الجبهة الشرقية المواجهة للفاطميين في أفريقية (تونس) وهناك أشرف على أحوال المجاهدين المرابطين فيها استعداداً لصد أي هجوم فاطمي عليها.

ويبدو أن الفاطميين شعروا باستحالة غزو الأندلس، كما شعروا أن بقاءهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر أمام وثبات البربر وأمام غارات الأمويين ودسائسهم، ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلهم يصممون على إخلاء هذا الميدان والتحول إلى مصر. وفى عام 358ه/ 961م تمكن القائد جوهر الصقلي من الاستيلاء على مصر وتأسيس العاصمة الجديدة القاهرة. ثم لحق الخليفة المعز بقائده جوهر في مصر سنة 362هـ، تاركاً حكم المغرب في يد حلفائه من بنى زيري زعماء صنهاجة. وقد أتاح توجه هؤلاء نحو مصر وتراجع اندفاعهم باتجاه المغرب الأقصى للخليفة المستنصر أن يملا الفراغ الذي تركه المعز الفاطمي، وقد اتخذ عدة خطوات لدعم سياسته المغربية منها:

1- حصن قاعدتي سبتة وطنجة البحرتين اللتين لم تتعرضا لهجمات جوهر الصقلي، وأسقط عن سكانها الضرائب لتشجيعهم على الصمود.
2- طور الأسطول البحري، فضاعف عدد سفنه وعدته وعتاده.
3- اتخذ من مدينة المرية قاعدة بحرية لمواجهة الأسطول الفاطمي في البحر المتوسط.
4- تودد إلى القبائل البربرية في المغرب الأقصى من غير الزناتيين، واستطاع استقطابها، وكون منها جيشاً ضد الفاطميين.

5- عزز سلطة أهل السنة في شمالي إفريقيا، وطارد أنصار المذهب الاسماعيلي، وقاوم الدعاية الفاطمية (ابن عذارى،2009: 236).

واستمرت السيادة الفاطمية والأموية في المغرب على مبدأ المنافسة بين قبائل صنهاجة وزناتة وضرب بعضها ببعض وإثارة الفتن من وراء الستار. ولم تحاول كل من الدولتين إرسال جيوشها إلى هذا الميدان، فظل المغرب منقسماً على نفسه يعيش في فوضى، ويتخبط في ظلام. وأخيراً تمكنت صنهاجة أو بمعنى آخر الدولة الزيرية من بسط سيطرتها باسم الفاطميين على جميع النصف الشرقي من المغرب، أما القسم الغربي من نهر ملوية إلى طنجة فقد سيطرت عليه زناتة وحلفاؤها الأمويون. وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين الخلافتين المتنازعتين على المغرب الأقصى والأندلس (العبادي، بدون تاريخ: 314).

ولقد أعطى المستنصر حليفته زناته الدعم الكافي لتحقيق هدفين: الأول هو الاحتفاظ بالمواقع العسكرية التي كانت تحت سيطرة الأمويين، والثاني هو اضعاف الحكم الفاطمي في هذه المنطقة بتحقيق تعادل في الموازين السياسية لمصلحة الخليفة المستنصر السياسية.

وما لبث الصراع في المغرب أن اتخذ بعداً محلياً مع غياب الحكم الفاطمي المباشر، فأخذت القوي السياسية التي في الداخل تتزاحم على النفوذ، مستغلة هذا الفراغ الذي حدث مع تخلخل الزعامة الفاطمية في هذا الإقليم، وكان من بينها بقية الأدارسة بزعامة الحسن بن جنون (ابن عذارى،2009: 244) آخر أمرائهم قبل أن يقضي على دولتهم الفاطميون (ابن عذارى،2009: 242).

وانتهز الحسن عودة جوهر الصقلي إلى أفريقية فنقض طاعة الفاطميين. وقد أثار هذا التصرف قائد الفاطميين بأفريقية بلكين بن زيري الصنهاجي الذي عهد إليه المعز الفاطمي عمل أبيه زيزي في المغرب بعد أن قتل في حروبه ضد قبيلة زناتة، فأعد جيشاً لإعادة هيبة الفاطميين في المغرب الأقصى، وتمكن من إخضاع الحسن بن جنون، وأجبره على البيعة له، ناكثاً ببيعته للخليفة المستنصر (ابن عذارى،2009: 244).

ولم يتردد الخليفة المستنصر في إرسال أساطيله وجيوشه عبر المضيق لاستعادة نفوذه في تلك المنطقة، ولم ينس لتغطية موقفه أن يصبغ تدخله هذا بصبغة دينية قوامها حماية الإسلام والسنة في المغرب من الهرطقة الشيعية على حد قوله. وأول من أنفذه إلى المغرب قائده ووزيره محمد بن القاسم بن طلمس الذي عبر المضيق إلى سبتة، ثم لحقت به الأساطيل الأندلسية بقيادة قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس. وتكاملت الجيوش والأساطيل معاً بسبتة (ابن حيان، 1973: 89). ومن هناك شن هجوماً عنيفاً على طنجة معقل الثورة الإدريسية، حيث بذل زعيمها الحسن بن جنون جهوداً عظيمة في مقاومة الحصار الأموي، لكنه فشل، وانتهى الأمر باستلام المدينة وعودة السيادة الأموية إليها، كما عادت إلى المدينة الأخرى أصيلا، وهرب الزعيم الإدريسي دون أن يلقي سلاحه أو يتوقف عن إثارة المتاعب ضد الأمويين (ابن عذارى،2009: 245)، فلم يجد الأهالي بداً من الاستسلام، فخرج شيخهم ابن الفاضل مع جماعة من أعيان المدينة، وأعلنوا طاعتهم للخليفة الأموي، وطلبوا الأمان من القائد الأندلسي عبد الرحمن بن رماحس (ابن حيان، 1973: 89،90).

لم يركن الزعيم الإدريس إلى الهدوء، وما لبث أن أعاد تنظيم صفوف قواته، وباغت الجيش الأموي في فحص مهران في ضواحي طنجة وهزمه، وقتل القائد محمد بن القاسم بن طملس مع ألف وخمسمائة من جنده، وذلك في ربيع الأول 362ه/972م -، وفرت فلول الأندلس إلى سبتة، فامتنعوا بها، وبعثوا إلى الخليفة المستنصر يطلبون النجدة والغوث (ابن حيان، 1973: 96).

وأراد الحسن في نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصلح وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن، وبعث عبد الرحمن بن رماحس بذلك إلى الخليفة المستنصر، فكتب المستنصر إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار في مجاهدة الملحد ومن معه حتى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم. وجهز المستنصر جيشاً جديداً جعل على قيادته مولاه ووزيره وقائده الجسور غالب بن عبد الرحمن البعيد الصيت والمعروف بالشهامة، وأمره أن يشتد في قتال الأدارسة وأن يستأصل شأفتهم وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبنى أمية، وقال له: سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حياً منصوراً أو ميتاً مغدوراً، وأبسط يدك في الإنفاق، فان أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال (ابن خلدون، 2009: 218). ثم أبحر غالب بجيوشه من الجزيرة الخضراء يريد طنجة في رمضان 362هـ إلا أن عاصفة شديدة واجهت أسطوله، وردته ثانية إلى ساحل الجزيرة التي أبحر منها، واضطر أن يبقي هناك أياماً إلى أن تحسن الجو، فعبر المضيق إلى طنجة، ثم تقدم لقتال الأدارسة في معاقلهم الشاهقة في شوال من تلك السنة. وفى نفس هذا الوقت اتجه عبد الرحمن بن رماحس بأسطوله من طنجة إلى أصيلا كي يتعاون مع الأسطول الأندلسي المرابط هناك، ولكي يكون قريباً من القائد الأعلى غالب. ولقد بارك الخليفة المستنصر هذه الحركة بخطاب وجهه إلى ابن رماحس يقول له فيه: إن اجتماع الأسطولين فيه صواب التدبير (ابن حيان، 1973: 115،).

ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك إمدادات جديدة بقيادة الوزير يحيى بن محمد النجيبى وإخوته يوسف ومحمد وهاشم وهذيل ومعه جملة من المال. ونزل يحيي وجنده بطنجة، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى غالب، وشدد غالب الحصار على الحسن، وقطع سائر علائقه وموارده وبث قواته في سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة واستئصال شأفتهم، ونشبت بين جند الخليفة المستنصر وبينهم معارك عديدة، قتل فيها الكثير منهم سنة 363ه، واستولى غالب على مدينة البصرة بعد أن سلمها إليه أهلها (ابن حيان، 1973: 110).

وبهذه السياسة العنيفة الحازمة شدد الأمويون الحصار حول حصن ابن جنون المعروف بحجز النسر، فاشتد الأمر عليه، واضطره إلى الاستسلام وطلب الأمان، فأجيب إلى طلبه، ودخل غالب الحصن حيث صلى في مسجده صلاة الجمعة مع الأمير الإدريسي، ودعي يومئذ على منبره للخليفة المستنصر. ثم عاد القائد غالب إلى الأندلس ومعه الحسن بن جنون وأقرباؤه الأدارسة. وكان يوم دخولهم مدينة الزهراء يوماً مشهوداً لما ظهر فيه من فخامة الملك وكثرة الجمع. وبإخماد هذه الثورة استطاع الخليفة المستنصر أن يضمن سيطرته على مضيق جبل طارق، وأن يحمى بلاده من أي خطر شيعي أو زيري يتهددها من ناحية العدوة المغربية (ابن حيان، 1973: 150).

سياسة ابن أبي عامر في بلاد المغرب:

سار ابن أبي عامر على نفس سياسة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر التي تقوم على ضرورة الاحتفاظ بالعدوة المغربية تحت السيطرة الأندلسية لتكون خط دفاعها الأمامي ضد الخطر الشيعي من هذه الجهة الجنوبية. وقد اعتمد في ضبط الأوضاع في الأراضي الواقعة وراء سبتة على أبنائها من أمراء زناتة ومغراوة ويفرن ومكناسة وغيرهم من الموالين للدولة الأموية في الأندلس، فاستولى خزرون بن فلفول المغراوي على سلجماسة، وطرد المداريين منها، وقضى على دولتهم، وأقام الدعوة للخليفة هشام المؤيد في عام 367ه/977م، وهي أول دعوة تقام لبني أمية على منابر سجلماسة منذ تأسيس دولتهم في الأندلس. وقد نجح ابن أبي عامر في سياسته المغربية نجاحاً كبيراً لم يبلغه أحد من قبل ولا من بعد، إذ دخلت في الطاعة الأموية كل البلاد المغربية الممتدة إلى سجلماسة جنوباً، وإلى ولايتي تلمسان وتاهرت.

وقد شرح صاحب مفاخر البربر هذه السياسة العامرية بقوله: " واقتصر محمد بن أبى عامر لأول قيامه على ضبط مدينة سبتة وما والاها بجند السلطان الأندلسي، وقلدها كبار رجاله من أصحاب السيوف والأقلام على حسب الحاجة إلى تغيير طبقاتهم. وعول في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة، ومنحهم الجوائز والخلع، وأكرم وفودهم ببابه، وأثبت من رغب منهم الإثبات في ديوانه، فأحبوا محمداً، وجدوا في المحاماة عن الدولة. واتفق لهم أيام تقلده الحجابة، وتفرده بتدبير الدولة، وذلك في شعبان سنة 369هـ/979م أن زحف خزرون بن فلول أحد عظماء زناتة -المرتسمين بولاية بني مروان بالمغرب - إلى مدينة سجلماسة، وكانت قد عادت إلى أيدي الخوارج الأباضية بعد فتح جوهر (الصقلي) لها، وأسره لمحمد بن الفتح صاحبها الخارجي. وقام رجل منهم وتسمى بالمعتز بالله سنة 352هـ، فلم يزل مالكها إلى أن ظهر عليه خزرون بن فلول وهزم جموعه وقتله، واستولى على سجلماسة وضبطها، وذلك سنة 376هـ. ووجد للمعتز مالاً عظيماً وسلاحاً كثيراً، وأقام الدعوة للخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم، وهي أول دعوة قامت للمروانية بذلك الصقع الجنوبي. وكتب بالفتح إلى هشام، وأنفذ رأس المعتز فشهر بقرطبة، ونصب بباب السدة. وكان أول رأس رفع في الدولة، ونسب الأثر فيه إلى محمد بن أبي عامر، وتيمن لحجابته، وعقد لخزرون على سجلماسة، فلم تزل بيده إلى أن أهلك، وصارت في يد ابنه إلى انقضاء الدولة (مفاخر البربر،1934: 24،16).

وعلى الرغم من هذا النجاح الكبير الذي أحرزه ابن أبي عامر في العدوة المغربية، فقد قامت معارضات وثورات عديدة ضد النفوذ الأموي في هذه المنطقة، لكن ابن أبي عامر كان لها بالمرصاد، لدرجة أنه اتخذ من مدينة الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس قاعدة عسكرية للإشراف منها على العمليات الحربية في تلك العدوة، كما أمر بأن تبني له القصور والمنازل في طريقه إلى الجزيرة الخضراء جنوباً على غرار ما فعل في الطرق المؤدية إلى الثغور الأندلسية شمالاً.

أولاً: ثورة الأمير بلكين الصنهاجي:

بعد انتقال مركزها إلى مصر صرفت الدولة الفاطمية جل اهتمامها إلى المشرق، من ملاحقة القرامطة إلى التصدي للخطر البيزنطي في بلاد الشام، غير أنهم لم يحولوا أنظارهم نهائياً عن المغرب، ذلك الإقليم الأثير ومركز انطلاق دولتهم في العالم الإسلامي. فما كادت تلوح فرصة أمام الخليفة العزيز بالله حتى أوعز إلي الزعيم بلكين بن زيري الصنهاجي بالتوجه إلى المغرب الأقصى لاستعادته من التبعية الأموية. وقد أراد الزعيم بلكين بن زيري الصنهاجي أن يثبت أنه أهل للحكم الذي عهد إليه من جانب الفاطميين، فهاجم معاقل هؤلاء في المغرب الأقصى في عام 369هـ/980م، وأجلاهم عنها، وأجبرهم على التحصن في سبتة، وكانوا بقيادة جعفر بن على بن حمدون، فأرسل هذا أخاه يحيى إلى قرطبة لطلب المساعدة من ابن أبي عامر (ابن خلدون، 2009: :156). ولم يتأخر ابن أبي عامر عن إمداد حلفائه بالمساعدة العسكرية والمادية لمنع عودة النفوذ الفاطمي إلى المغرب الأقصى الذي كاد يخرج نهائياً من السادة الفاطمية، وخرج هو على رأس جنده إلى الجزيرة الخضراء ليراقب الوضع عن كثب (ابن خلدون، 2009: 19).

وزحف بلكين بن زيري على سبتة، ولما أشرف عليها هالته حصانتها وكثرة جيشها وسرعة إمداداتها، وأدرك أنه يصعب عليه اقتحامها، فانصرف نحو الجنوب، واكتفى بالاستيلاء على فاس وسجلماسة وتلمسان، وخرب البصرة، وطرد عمال الأمويين، ثم عاد إلى القيروان حيث تلقي أمراً من القاهرة بألا يتعدى هذه الحدود. وظلت سبتة معقلاً أموياً حصيناً للزناتيين (ابن خلدون، 2009 :156).

ويبدو أن تراجع بلكين بن زيري من أمام سبتة وانسحابه إلى أفريقية له علاقة بمدى استنفاد حركته أمام الضغط الأموي من جهة واضطراب الجبهة الموالية للفاطميين وتناقضاتها من جهة أخرى، ذلك أن

ظهور الزعيم الإدريسي الحسن بن جنون فوق ساحة الصراع السياسي في المغرب الأقصى أدى إلى خلط الأوراق وبلورة مواقف جديدة (بيضون، 1986: 359).

ثانياً: تصديه للأمير الإدريسي الحسن بن جنون:

كان أمير الأدارسة في أواخر عهد الناصر هو الحسن بن جنون، الذي قدر أن تنقضي على يده دولة الأدارسة بالمغرب. وكان قد بايع العبيديين، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلي على المغرب ناكثاً بذلك عهده للناصر، فلما انصرف جوهر عن أفريقيا عاد الحسن إلى طاعته لبنى أمية. ولما توفي الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم المستنصر، ولم يكن ذلك سوى مصانعة أو رياء، إذ كان الأدارسة يبغضون بنى أمية، ويترقبون فرص الخروج عليهم، ولم تكون طاعتهم لهم إلا خوفاً من بطشهم، لوقوع ممتلكاتهم في شمال العدوة المغربية على مقربة من الأندلس (عنان، 1988: 492).

وكما أسلفنا استطاع القائد غالب الانتصار على الأدارسة، واستسلم له الزعيم الحسن بن جنون. وبعد أن رجع القائد غالب إلى قرطبة استقبله الخليفة الحكم المستنصر استقبال الأبطال، وكذلك استقبل الخليفة زعماء الأدارسة وشيخهم حنون بن أحمد بن عيسى، وشكر طاعتهم، وعفا عن الحسن، ووعدهم بالإحسان، وأجزل لهم الأرزاق والصلات (ابن حيان، 1973: 194). ثم وقع نفور بين الحسن بن جنون والحكم المستنصر للأسباب عدة منها.

1-سوء خلق الحسن ولجاجته، فقد كان الحسن بن جنون هذا جاهلاً متهوراً فظاً، شديد الجرأة، قاسى القلب، ولم ينس الحكم المستنصر ما كان من قسوته وفظاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما، حيث كان الحسن يلقي بالأسري من جند الأندلس من أعلى قلعته الشامخة، فيصلون إلى الأرض إرباً (ابن الخطيب، 1973: 223).

2 -كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ويستثقل نفقاتهم، وينصح بإخراجهم من الأندلس، فرأى الحكم أن يقصيهم عن مملكته، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة، وأن يبعث بهم إلى المشرق.

وهكذا أخرج الحسن وعشرته من قرطبة، وركبوا البحر من المرية إلى تونس 365هـ/ 975م، ثم ساروا إلى مصر حيث نزلوا في كنف خليفتها الفاطمي العزيز بالله، فأكرم وفادتهم، ووعدهم بنصرة قضيتهم (ابن عذاري،2009: 265.) ويبدو أن وجود الحسن بن جنون في القاهرة، قد ثقل وجوده على العزيز بما كان ينفق عليه من أموال باهظة، فحرضه على العودة إلى شمال أفريقية لإحياء الدولة الإدريسية، وقد صادف هذا الاقتراح هوى في نفسه، فأقدم على تنفيذه، وتوجه فوراً إلى هناك في عام 373هـ/983م، وكتب له بعهده إلى المغرب الأقصى (ابن خلدون، 2009: 219). وقد حاول الحسن بن جنون أن يحيي من جديد دولة الادارسة بالمغرب، وأيدته في ذلك بعض القبائل الزناتية مثل بنى يفران، بجانب عدد كبير من العلويين الذين جاهروا بطاعته (العبادي، بدون تاريخ: 446).

وعندما علم ابن أبي عامر بخبر تجدد حركته، أرسل قوة عسكرية إلى المغرب الأقصى في عام 375هـ/985م بقيادة ابن عمه عمر بن عبد الله المعروف بعسقلجة لمحاربته، فعبر إلى سبتة، وهاجم مقر الزعيم الإدريسي، فاستسلم وطلب الأمان، على أن يذهب إلى الأندلس، فأمنه عسقلجة، وكتب لابن أبى عامر بذلك، لكن هذا الأخير رفض الاعتراف بأمان ابن عمه بسبب تكرر خروج ابن جنون، وأرسل من قتله في الطريق (ابن أبي زرع،1972: 94). ويبدو أن عسقلجة غضب لرفض ابن أبى عامر الأمان الذي أعطاه لابن جنون، وتلفظ بعبارات قاسية كلفته ثمناً غالياً، إذ تم استدعاؤه إلى قرطبة لتوضيح موقفه. ودفع ثمن تهوره، وحل محله الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي، وذلك عام 376هـ/986م (ابن خلدون، 2009: ج7، 20).

ولقد أثار مقتل الحسن بن جنون استياء العلويين من ابن أبي عامر، فأخذوا يعرضون به في كلامهم، ويهجونه في أشعارهم، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال قول الشاعر ابراهيم بن إدريس الحسنى في هذا الصدد:

فيما أري عجب لمن يتعجب جلّت مصيبتا وضاق المذهب
إني لا أكذب مقلتي فيما أري حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حياً من أمية واحد وبسوس ضخم الملك هذا الأحدب
تمشى عساكرهم حوالي هودج أعواده فيهن فرد أشهب
أبنى أمية أين أقمار الدجى منكم وما لوجوهها لا تتغيب (مفاخر البربر، 1934: 21)

وبمقتل الحسن بن جنون غابت أخر حلقة من تاريخ الأدارسة السياسي في المغرب الأقصى، وسقطت معها فكرة إحياء السيادة الفاطمية بالتعاون مع زعماء محليين يضمنون استمراريتها ولو في إطار رمزي، إذ تشير المصادر إلى أن ابن أبي عامر أمر بإخراج الادارسة من الأندلس والمغرب الأقصى، فتفرقوا في القبائل المغربية، واضطروا إلى أن يتخلوا عن نسبهم العلوي خشية الملاحقة، فانهارت بذلك دعواتهم، وتفرق أنصارهم، وسكنت ريحهم (ابن عذارى، 2009: 281).

ثالثا: ثورة الزعيم زيزي بن عطية الزناتي:

بعد مقتل الحسن بن جنون ندب ابن أبي عامر لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي، ومنحه السلطان المطلق، وأمره أن يعمل على استمالة البربر في تلك الأقطار، إذ يجب ألا ننسي أن البربر كانوا لابن أبي عامر ظهيراً وعوناً على اخضاع القبائل العربية بالأندلس، ومنهم اتخذ حاشيته وجنده والكثير من رجال حكومته وجيشه. وقد سار الوزير إلى المغرب عام 376هـ، ونزل بفاس، وضبط شئون البلاد، واجتمعت إليه أمراء زناتة ومغراوة، واتخذ من زعيم مغراوة زيزي بن عطية عوناً وحليفاً، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأييدها.

وينسب لزيري بن عطية بناء مدينة وجدة سنة 384هـ/994م بالقرب من الحدود الجزائرية، وجعلها عاصمة لدولته المغراوية. كذلك تنسب إليه رياض القرطاس التي زرعها بنواحي مدينة فاس حتى صار زيري يلقب بالقرطاس أيضاً. واستدعى ابن أبي عامر زيزي للوفود عليه، فسار إلى قرطبة، واحتفي ابن أبي عامر بمقدمه، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم، وأوعز إليه بمقاتلة بنى يفرن أولياء الفاطميين.

ولما عاد زيزي إلى المغرب سار مع الوزير الحسن إلى قتال بنى يفرن وزعيمهم يدو بن يعلي، لكن الوزير الحسن هزم وجرح، وتوفي متأثراً بجراحه سنة 381هـ، فلما علم بن أبي عامر بذلك عقد لزيري على المغرب، وندبه لحكمه، وأمره بضبط الأمور والتعاون مع جيش الخلافة، وأصحاب الحسن، فاضطلع زيزي بمهام الحكم بمقدرة وكفاية، وكان حازماً، قوى النفس والعزم، فقوى أمره، وتوطد سلطانه، ولكنه لبث مشغولاً بأمر خصومه من بنى يفرن وغيرهم (ابن عذارى، 2009: 281). وساد المغرب في أعقاب ذلك حالة من الهدوء امتدت نحو عشر سنوات (376هـ،386هـ)، كانت العلاقات خلالها بين السلطة الحاكمة وحلفائها الزناتيين ودية وتتسم بالتعاون، ونال زعيمها المغراوي مكانة رفيعة لدى حكومة قرطبة التي وقفت مع هذا الدور الإيجابي موقفاً متعاطفاً، وأحاطته بكثير من الاهتمام.

وفى سنة 382ه/992م استدعى ابن أبي عامر زيزي بن عطية للقدوم عليه للمرة الثانية، فاستخلف زيزي على المغرب ولده المعز، وسار إلى قرطبة. وقدم إلى ابن أبي عامر هدية عظيمة منها طيور

نادرة وحيوانات غريبة وأسود، هذا إلى جانب التمر الجيد الكبير الحجم، فأكرم وفادته، وأنزله بقصر المصحفي، وغمره بالمال والصلات، ومنحه لقب الوزارة، وجدد عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه، ولكن زيزي لم يبتهج بلقب الوزارة، بل بالعكس ساءه ذلك، إذ كان يعتبر نفسه في مرتبة الإمارة، فعبر البحر إلى العدوة المغربية وفى نفسه مرارة وخيبة أمل. ويروى أنه لما جاز المضيق عائداً إلى وطنه، واستوت قدمه على أرض مدينة طنجة خاطب بلاده مرحباً: الآن علمت أنك لي (ابن عذارى،2009: 281). وهذه العبارة تدل على الاستقلال ببلاده.

ولقد ذكر في أسباب الخلاف روايات مختلفة منها أن زيزي استقل العطاء الذي يجريه عليه ابن أبى عامر في كل سنة، ومنها أن زيزي أنكر على ابن أبي عامر استبداده بالخليفة هشام. هذا بالإضافة إلى ما ذكرناه أن زيزي احتقر لقب الوزارة الذي أنعم عليه به ابن أبي عامر، حيث وجد فيه تقليلاً من وزنه السياسي كأمير ينتمي إلى قبيلة كبيرة لدرجة أنه صاح في وجه أحد رجاله حينما ناداه بالوزير قائلاً: وزير من يا لكع، لا والله إلا أمير من أمير. واعجباً لابن أبي عامر ومخرقته، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله، وأن له منا ليوماً. غير أن هذه المصادمة إن صح وقوعها بين الرجلين، فهي غير صالحة لأن تكون مقدمة ثورة شاملة تستقطب البربر ضد الوصاية العامرية. إن من الراجح أن زيزي قد شعر بقوته من خلال القاعدة الشعبية التي التفت حوله من سواد قبائل البربر التي استهواها دائماً الاستقلال بشئونها السياسية والاقتصادية. وكان زيزي بشخصيته الذكية قد احتل مكانة عالية لدى جماعته من البربر، فتحول بنظرهم إلى قائد شعبي، تتجسد فيه آمالهم البعيدة في السيادة والاستقلال.

ومن الطريف أن السيدة صبح التي كانت تكن لابن أبي عامر كل حب وإعجاب، ثم انقلبت عليه بسبب حجره الشديد على ابنها الخليفة هشام المؤيد، حاولت أن تأتي بجيش من المغرب على نفقتها للقضاء عليه، وأخذت الأموال من بيت المال إلى القصر الخلافي بالزهراء ووضعتها في جرار لإرسالها على شكل هدايا إلى زيزي بن عطية، لكن ابن أبي عامر استطاع بفضل عيونه أن يكتشف المؤامرة، ويستولى على هذه الهدايا، ولكيلا تتكرر هذه الحادثة نقل بيت المال فوراً من مدينة الزهراء إلى مدينة الزاهرة التي بناها لنفسه (ابن خلدون، 2009 ج 7: 43).

أعلن زيزي ثورته على ابن أبي عامر في سنة 386ه/997م، فاستولى على مدينة فاس بعد مذبحة استهدفت أعوان الدولة العامرية، ثم أخذت الثورة تنتشر بسرعة في مناطق المغرب الأقصى حتى خضعت بكاملها ما عدا القواعد الأموية المطلة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومليلة. تبع ذلك طرد العمال العامرين من جميع تلك البلاد.

وإزاء موقف زيزي بن عطية وتطاوله رد ابن أبي عامر بأن قطع عنه رزق الوزارة، ومحا اسمه من ديوانه، واعتبره خارجاً عاصياً. ورد زيزي على ذلك بأن قطع ذكر ابن أبي عامر من الخطبة، وطرد عماله بالمغرب. وأعلن الخروج والثورة، فجهز ابن أبي عامر لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاه الفتى واضح، وأمده بالأموال والذخائر، وعبر واضح البحر إلى طنجة، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر عمارة وصنهاجة، وحالفته على قتال زيزي. وخرج زيزي في قواته. والتقي الجمعان في جنوبي طنجة، ونشبت بينها معارك شديدة متصلة ثلاثة أشهر، انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه وفراره إلى طنجة. وقد جعل زيزي شعاره وصيحات جنوده في هذه الحرب عبارة " هشام يا منصور"، بينما كان شعار جنود ابن أبي عامر " يا منصور ". ولا شك أن هناك فرق له مغزاه بين الشعارين. وكان هدف زيزي الاستقلال ببلاده (ابن حيان، 1973: 158).

وأمام هذه الهزيمة اتخذ ابن أبي عامر خطوات حاسمة في هذا الموضوع، إذ خرج بجميع جيوش الأندلس إلى الجزيرة الخضراء، ثم أجازها جميعاً إلى سبتة، وأسند قيادتها إلى ابنه عبد الملك المظفر

بدلاً من مملوكه واضح، وبقي ابن أبى عامر في الجزيرة الخضراء يراقب المعركة عن كثب. وشعر زيزي بخطورة موقفه، فبعث إلى جميع قبائل زناتة يستصرخها لنصرته، فهرعت إليه من جميع أنحاء المغرب، فنهض بها إلى قتال عبد الملك، ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة بوادي منى بأحواز طنجة كان النصر فيها سجالاً بينهما (ابن أبي زرع،1972: 158). وعندئذ استخدم ابن أبي عامر سلاحه السري الذي طالما استخدمه من قبل مع أعدائه ومنافسيه، وهو سلاح الخيانة، فتشير المصادر أن غلاماً أسوداً اسمه كافور بن سلام كان زيزي قد قتل أخاه من قبل، استطاع أن يصل إلى خيمة زيزي، فأصابه بطعنة نافذة في رقبته، ثم فر هارباً إلى معسكر عبد الملك مبشراً بقتل زيزي. ولما تأكد عبد الملك من صحة هذا الخبر، حمل على جنود زيزي وهم في حالة دهشة واضطراب، فهزم جموعهم، واستولى على ما معهم من مال وسلاح، ثم استولى على فاس وتادلا وسجلماسة وغيرها من المدن الهامة، فدان المغرب الأقصى لطاعة ابن أبي عامر، وعاد عبد الملك إلى الأندلس، بينما بقي واضح في المغرب كحاكم عليه من قبل الدولة الأموية سنة 389هـ/999م. أما زيزي فقد حمله أصحابه جريحاً إلى الصحراء، فظل بها إلى أن اندملت جراحه (ابن حيان، 1973: ص159).

وفى تلك الأثناء كان زيزي قد جمع فلوله من قوات زناتة، ووافته جموع كثيرة من مغراوة. وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها، فانتهز زيزي هذه الفرصة وزحف شرقاً إلى بلاد صنهاجة، وأوغل فيها، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض البلاد الأخرى، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد ولابن أبي عامر، ثم كتب إلى ابن أبي عامر يتقرب إليه ويسترضيه، ويؤكد حسن طاعته من جديد، فعفا عنه وأعاده لولاية المغرب، بيد أنه لم يعيش طويلاً، إذ توفى في سنة 391هـ/1001م متأثراً بجراحه التي أصابته في موقعة وادي منى (ابن حيان،1973: 160). وقد خلفه ابنه المعز (ابن عذارى،2009: 253.) ويبدو أنه لم يكن راضياً عن سياسة والده المتقلبة تجاه الدولة الأموية في الأندلس، فآثر أن يتفاهم مع ابن أبي عامر، فدخل في طاعته.

وهكذا سيطرت الخلافة الأموية من جديد على يد حاجبها ابن أبي عامر على معظم بلاد المغربين الأوسط والأقصى. إذ كان يمثلها على الإقليم الأول المعز بن زيري، ويمثلها على الإقليم الثاني الولاة الذين كان يعينهم الحاجب المنصور ثم ابنه عبد الملك المظفر الذي حرص على انتهاج سياسة والده من وحي المحافظة على النفوذ الأموي على الجانب الآخر من العدوة.

على أن موضع الأهمية هنا هو أن فكرة الانتقام من الخلافة الفاطمية الشيعية والقضاء على نفوذها في مصر والشام وأفريقية ظلت تراود عقول الأمويين في الأندلس رغم بعد المسافات التي بينها، ويستشهد المؤرخون بقول ابن ابي عامر:

عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشاما (المقري،1997: 160).

ومن الغريب أن ما تنبأ به المنصور من شعر هنا، كاد أن يتحقق فعلاً بعد وفاته بقليل، إذ يروى أنه في سنة 395ه/1005م قامت في إقليم برقة ثورة سنية خطيرة ضد الحاكم بأمر الله الفاطمي، قام بها الوليد بن هشام أحد أفراد البيت الأموي الأندلسي، ويلقب بأبي ركوة. وكان يدعو على المنابر باسم الخليفة الأندلسي هشام المؤيد. وقد تمكن من الاستيلاء على برقة، وطارد الجيش الفاطمي حتى أهرام الجيزة، لكنه انهزم أخيراً وأسر، ثم قتل وصلب بالقاهرة (المقري،1997: 160).

الخاتمة:

على ضوء ما استعرضنا يمكننا أن نخلص إلى أن سياسة الدولة الأموية في المغرب كانت مركزية لا تتغير بتغير الحكام، وهي تقوم على أسس ثابتة نذكر منها:

أولاً: اعتبار السواحل المقابلة للأندلس بمثابة حزام أمان للأندلس يجب الحفاظ على تبعيتها وولائها لحكومة قرطبة مهما كانت الأسباب.

ثانياً: مواصلة الكفاح السياسي والمذهبي ضد الشيعة من الفاطميين وبقية الأدارسة بالمغرب الأقصى.

ثالثاً: استقطاب أمراء المغرب الأقصى ورؤساء القبائل هناك.

رابعاً: مساعدة الثائرين في المغرب ضد الفاطميين، ولقد جنى الأمويون ثمار تلك المساعدة، فقد رأينا مثلاً كيف أن مساعدة الخليفة عبد الرحمن الناصر لثورة أبي زيد الخارجي أدت إلى تقلص سلطان الفاطميين وانحساره حول المهدية حتى كادت دولتهم أن يذهب ريحها.

خامساً: التدخل المباشر إذا لزم الأمر.

في المقابل كانت سياسة الفاطميين بعد انتقال مركز ثقلهم إلى مصر تقوم على مبدأ رد الاعتبار واستعادة المناطق التي خسروها في المغرب الأقصى، فأوعزوا إلى عملائهم للقيام بسلسلة من العمليات العسكرية لاستخلاص المدن المهمة والمناطق الحيوية لبسط نفوذهم. ولما فشلوا في ذلك صار نشاطهم يهدف إلى تعكير الأمن على قرطبة.

ولقد استمرت السيادة الفاطمية والأموية في المغرب على مبدأ المنافسة بين قبائل صنهاجة وزناتة وضرب بعضها ببعض وإثارة الفتن من وراء الستار. ولم تحاول كل من الدولتين إرسال جيوشها إلى هذا الميدان، فظل المغرب منقسماً على نفسه يعيش في فوضى.

نتائج الورقة:

1- كانت رغبة أمويي الأندلس في مقاومة النفوذ الشيعي الفاطمي في المغرب هو الدافع الأساسي لإعلانهم قيام الخلافة الأموية بالأندلس، فكان ذلك من الأسباب التي أثارت الخلافة الفاطمية، حيث اعتبر الفاطميون ذلك الإعلان تعدياً عليهم.
2- لما شعر الفاطميون باستحالة غزو الأندلس وأن بقاءهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر أمام غارات الأمويين ودسائسهم، قرروا إخلاء ذلك الميدان والتحول إلى مصر.
3- أتاح توجه الفاطميين نحو مصر وتراجع اندفاعهم باتجاه المغرب الأقصى للخلافة الأموية أن تملأ الفراغ الذي تركوه.
4- سقطت فكرة إحياء السيادة الفاطمية بالتعاون مع زعماء محليين يضمنون استمراريتها ولو في إطار رمزي.
5- كان الضغط الفاطمي على الدولة الأموية بالأندلس سبباً في انتعاش أسطولها البحري الذي أخذ في النمو إلى درجة أن الأندلس صنفت بين الدول البحرية الشهيرة في ذلك الوقت إلى جانب الفاطميين والبيزنطيين.

التوصيات:

نوصي الدارسين بالبحث في أسباب فشل نشر الفاطميين للمذهب الشيعي في شمال أفريقيا ومصر رغم نفوذهم القوي فيهما.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (1979): كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (1973): المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، بيروت، لبنان.

- ابن عذارى، المراكشي (2009): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت.

- ابن الخطيب، لسان الدين (1964): أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق بروفنسال، دار المكشوف، ط2، بيروت، لبنان.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (2009): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة، مصر.

- البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز (1997): جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر، ط1، بيروت لبنان.

- ابن أبي زرع، علي ابن أبي زرع الفاسي (1972): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط.

- السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر (1964): تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مصر.

- المقري، أحمد بن محمد التلمساني (1988): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صاعد، بيروت، لبنان.

- مجهول (1934): مفاخر البربر، تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط، المغرب.

- ياقوت الحموي (1906): معجم البلدان، القاهرة، مصر.

ثانياً المراجع الحديثة:

- بيضون، د. إبراهيم (1986): الدولة العربية في إسبانيا، ط3، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

- العبادي، أحمد مختار: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

- السامرائي، د. خليل إبراهيم، وآخرون (2000): تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا.

- الزناتى، د. سالم عبد الله (2008): تاريخ المسلمين وحضارتهم في عهد بني أمية، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازى، ليبيا.

- عنان، د. محمد عبد الله (1988): دولة الإسلام في الأندلس، ط3، مكتبة الخاتمي، القاهرة، مصر.